


المنظومة
ALMANDUMAH



أدباء وكتاب عرب من أصـــول أرمنيـــة

د. نورا أريسيان ❀

عندما نتعمـــق في نشأة وتكوين العلاقات العربيـــة الأرمنية عبر القرون نجد بروز عدد من الشخصيات التي أسهمت في العلاقات المتبادلة في مجالي التاريخ والأدب على حدّ سواء.

فمن الشخصيات البارزة في التاريخ العربي من أصول أرمنية في القرنين الثاني والثالث عشر في مصـــر الشيخ عبد الله الأرمني وأبو صالح الأرمني، أما في الدولة الفاطمية فبرز الوزير بدر الدين الجمالي وغيره.

❀ أديبة وأستاذة جامعية (سورية).

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

أما في الحياة الثقافية فقد لعب عدد كبير من الأدباء الأرمن دوراً لا يمكن إغفاله في سورية ولبنان ومصر وفلسطين والعراق، إذ تركوا بصماتهم في أدب تلك الدول العربية وفي الثقافة العربية عموماً. فاشتهر منهم العديد من الأدباء والشعراء والباحثين في التاريخ.

أما فيما يخص الشخصيات الأدبية العربية من أصول أرمنية، للحقيقة أنه لمع العديد منهم في سماء حلب على وجه الخصوص، فمن تلك الأسماء على سبيل المثال: في القرن السابع عشر: شاهين كاندي، والشاعر واللغوي مكرديج الكسيح الأرمني. وفي القرن الثامن عشر المطران بولس آروتين، والمحرر والصحفي المعروف رزق الله حسون (صاحب جريدة «مرآة الأحوال» وقد كانت صحيفة سياسية أسبوعية تصدر في القسطنطينية عام ١٨٥٥). أما في القرن التاسع عشر فقد برز الأب أنطوان خانجي وله كتاب بالعربية حول تاريخ الأرمن، والأديب والمترجم جرجي بليط وغيرهم.

ويشهد الباحثون العرب على دور المثقفين الأرمن في الحياة الثقافية والأدبية في القرن التاسع عشر في البلاد العربية ولاسيما في الشام ومصر، حيث يقول الكاتب اللبناني الشهير يوسف يزبك «شاركت مجموعة من النبلاء الأرمن في إحياء الحركة الأدبية من جديد والتي كانت قد بدأت عندنا في القرن الماضي».

فخلال هذه الفترة برزت أسماء عديدة في مجال الأدب والشعر والتاريخ. ولكن سأكتفي هنا بأربع شخصيات فقط من مدن وبلاد عربية مختلفة.

سأحاول أولاً الإضاءة على شخصية تعتبر من أكثر المفكرين الأرمن المتأثرين بالثقافة العربية الكلاسيكية، وهو اسكندر بن يعقوب آغا أبكاريوس الأرمني ابن هاكوب أبكاريان. وهو كاتب لبناني من جذور أرمنية.

لقد ترك اسكندر بن يعقوب آغا أبكاريوس وشقيقه يوحنا أبكاريوس العديد من المؤلفات الهامة.

كان يوحنا أبكاريوس ترجماناً لقنصلية انكلترا في بيروت. ولد عام ١٨٢٦م في بيروت وتوفي فيها عام ١٨٨٥م. تلقى تعليمه في المدرسة الوطنية، ثم في الكلية الأمريكية في بيروت. وترك كتاباً قيماً في التاريخ بعنوان «قطف الزهور في تاريخ الدهور» طبع في بيروت عام ١٨٧٣م، وطبعة ثانية عام ١٨٨٥م. وأيضاً كتاب «نزهة الخواطر» جمع فيه بعض الأخبار ومقاطع أدبية. وكتاب «التحفة الأنيسة في النوادر النفيسة». من أشهر آثاره «قاموس إنكليزي-عربي» مطول ومختصر،

تمَّ تنقيحه وإعادة نشره لاحقاً.

أما اسكندر أبكاريوس ولد في بيروت، وبعد تحصيل العلم في أوروبة عاد إلى بيروت ثم تركها ليستقر في القاهرة عام ١٨٧٤ على خلفية صلة وعلاقة عائلة أبكاريوس بالعائلة الخديوية في مصر، حيث أسند الخديوي اسماعيل لاسكندر عدّة مناصب إدارية. ثم عاد إلى بيروت لأسباب استشفائية من مرضه الجلدي. تنقل في مدن عربية عديدة وتوفي عام ١٨٨٩م في بيروت.



وهو واحد من الشعراء العرب في القرن التاسع عشر، حيث ترك مؤلفات عديدة منها: كتاب «نهاية الأرب في أخبار العرب» طبع في مرسيليا عام ١٨٥٢م، ثم أعاد طباعته في بيروت عام ١٨٦٧م بعنوان «تزيين نهاية الأرب في أخبار العرب». وكتاب «روضة الأدب في طبقات شعراء العرب» و«مُنية النفوس في أشعار عنتر عبس» وكتاب الشعر «نزهة النفوس وزينة الطروس» وهو كتاب المدائح والمراثي والتهاني. وكتاب تاريخ بعنوان «ديوان الدواوين في أجواد المتقدمين والمتأخرين». وغيرها. وله كتاب ترجمة لمحمد علي باشا بعنوان «المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية». ويعتبره البعض على أنه من أهم أعمال أبكاريوس التاريخية وتعود أهميته البالغة إلى ندرة المصادر الأدبية التي أرخت لعصري محمد علي باشا الكبير وإبراهيم باشا. وتتجلى أهمية الكتاب في التركيز على فتوحات إبراهيم باشا في الشام والأناضول.

وكتب أيضاً ترجمة لتاريخ إبراهيم باشا بعنوان «المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية». وكذلك الملحمة الشعرية الطويلة بعنوان «ريحانة الأفكار في أخبار الأسد الكرار والبطل القهار الملك شهريار» عام ١٨٨٠م، وكتاب آخر في التوثيق التاريخي بعنوان «نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان» أو «في وقائع عربستان» كما في النسخة الخطية. وصدرت ترجمته إلى الأرمنية عام ١٩٣٣م في بيروت.

وقد لفت الأنظار ضمن أبحاث الدارسين في أرمينيا كما في معجم التراجم للباحث الأرميني كارنيك ستيبانيان. والجدير ذكره أن أبكاريوس كان واسع الاطلاع على الوثائق الرسمية التي تتعلق بالبلاغات الحربية ونشرات الجيش المصري ومراسلات محمد علي باشا مع أوروبة. فيتوضح أن أكاريوس قام بمزجٍ بين الروايات الشفهية التي دونها والمعلومات التي حصل عليها من الوثائق. لا بد أن نذكر أن أبكاريوس عمل في الصحافة أيضاً، وشارك في تحرير صحيفة «الجنان».

وأذكر من أبياته بعنوان: شَرّفت بيروت:

شـرَّفتَنا فتزيّنتْ أقطارُنا
وزهتْ معالمُها وطاب الموردُ
وتَنورتْ بيروتُ حتى أصبحتْ
من نور مجدكَ كوكباً يتوقّد

فيمكن القول إن اسكندر أبكاريوس كان بحق من روَّاد النهضة الثقافية في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

في الحقيقة، أبدع العديد من الأدباء الأرمن باللغة العربية فحصلوا على مكانة خاصة في الأدب العربي وبرز منهم شخصيات دينية أيضاً اهتمت بالأدب وأبدعت.

وأتوقف هنا عند شخصية حلبية معروفة سعت إلى تدوين الموروث الشعبي الحلبي وهو يوسف قوشاقجي، من الأدباء الأرمن الحلبيين الذين أبدعوا باللغة العربية.

يوسف قوشاقجي من مواليد حلب ١٩١٤ وفي مراجع أخرى ١٩١٣. من طائفة الأرمن الكاثوليك. تلقّى تعليمه الابتدائي في حلب، درس في مدرسة مار غريغوريوس الصغرى ثم تابع دراسته في بيروت بمعهد الآباء اليسوعيين التابع لجامعة القديس يوسف. أتقن اللغات العربية والفرنسية واللاتينية. ودرس العلوم الفلسفية والكهنوتية، وتابع دراسته في روما. ألف وترجم أكثر من ٣٥ كتاباً منها دراسات في اللاهوت والكتاب المقدس وسير القديسين. ومنها ما اختص بالتراث الشعبي مثل الأمثال الشعبية الحلبية والأغاني الشعبية الحلبية.

وقد عمل مع الأب صبحي حموي الحلبي والأستاذ بطرس البستاني في إخراج ترجمة جديدة لأسفار العهد الجديد. سمي كاهناً عام ١٩٣٨م ودرس في عدّة مدارس ثم أصبح عام ١٩٤٣م مدير مدرسة القديس غريغوريوس.

اهتم الأب العلامة يوسف قوشاقجي بجمع ووضع كتب التراث الشعبي الحلبي، فصدر له كتاب «الأدب الشعبي الحلبي»، وله كتاب «الأمثال الشعبية في حلب وماردين»، في مجلدين.

اعتبرته مدينة حلب أحد المبدعين في مجال الفكر والثقافة والمجتمع وكرمته عام ١٩٨٧م. تابع الأب يوسف قوشاقجي مشوار المعلم نعوم بخاش، وهو واحد من أهم مؤرخي حلب في حياتها اليومية في مستهل القرن العشرين. فمن أهم أعماله تحقيقه كتاب (يوميات المعلم نعوم بخاش) بالكامل كما كتبها في دفاتر الجمعية وهو بأربعة أجزاء. (صدر الجزء الرابع والأخير بعد وفاته عام ١٩٩٥م).

هذا وقد قام بجمع وتحقيق وترتيب وتنظيم أعمال دفاتر الجمعية المعروفة (بأخبار حلب) للمعلم نعوم بخاش التي كتبها اعتبارا من عام ١٨٤٢م وحتى بدايات القرن العشرين وهي مليئة بالأخبار المكانية والعالمية التي أرّخها المعلم البخاش. فيتكلم في هذه المجلدات عن أحوال الأحياء الحلبية وعن الطقوس في حلب وأهم الولائم ويعطي أسماء بعض الشخصيات ويتكلم عن أحوال الطقس والكوارث الطبيعية وعن الأحوال السياسية اليومية والتاريخية والثقافية والدينية وبعض الويلات والحروب التي جرت في زمانه، فهي خلاصة التقاليد الشعبية في القرن التاسع عشر.

وفي مقالة له بعنوان: «الأعياد وشؤون الدين في أمثال حلب» كتب قوشقجي يقول: «جمعتُ نحو ستة آلاف مثل شعبي جرى في الماضي ولا يزال كثير منها جارياً على لسان شعب حلب. وسقطت أمثالٌ قديمة ولكن تنشأ أمثالٌ جديدة كقولهم في الثرثار وغيره... والجدير بالذكر أن هناك أمثالاً كثيرة على شؤون الدين ورجاله والعبادة والإيمان بالله، لتأصل الشعور الديني في أهل حلب من مسلمين ومسيحيين. وقد رأيتُ أن أبحث في هذا الموضوع لما فيه من فائدة تاريخية ودينية».

كما كتب قوشقجي الأمثال في موضوع الأعياد وأسماء القديسين مثل ذكر اسم بعض القديسين في هذا المثل أو ذاك. وأسهم الأب يوسف قوشاقجي بعدد ضخم من المقالات المفيدة في تاريخ الكنيسة الأرمنية

الكاثوليكيــة والكتــاب المقدســ. واختص، إضافــةً إلى ترجماته العديــدة من اللغات الأجنبية والأرمنية، بباب جعل عنوانه «قرأتُ وسمعتُ وقلتُ وكتبت» ذكر فيه اختباراته في حياته ومعاناته من مرضه.

لو ألقينا نظــرة على بيبلوغرافيا تشمل أعمــال ومؤلفــات وترجمــات الأب يوسف قوشاقجــي نجد من بين الكتب الأدبية التي ترجمهــا إضافة إلى كتاب (الأمثال الشعبية الحلبية)، كمــا نجد كتاب (تعريب الأناجيل وأعمال الرســل) في سلسلة بحوث ودروس، و(العهــد الجديــد) مترجم عــن اليونانية بالاشــتراك مــع الأب صبحــي الحمــوي اليسوعي والعلامــة بطرس البستاني. وعن الفرنسيــة قصة (مايريــك) لهانري فيرنو، والجسد المحطم بقلــم جان فانييه، وبولس ملســن: جان جوكان (مترجم عن الفرنسية) وتريزيو بوسكو: ســيرة دون بوسكو. وكتاب (العموديــون) و(المقدســات المسيحيــة في سورية). و(أنبياء العهــد القديم) و(رسالتا بطرســ)، و(خلاصة اللاهــوت المريمي)، و(قصة حياة تريز مارتان) للمطران غوشه، و(سيرة القديسة تريزيا الطفل يسوع).

أتوقف أيضــاً عند شخصيــات عربية من أصــول أرمنية من العــراق. لقد غبنت مجموعــات اجتماعيــة عراقيــة عديــدة ومنها الأرمن مــن قبل الدارسين والمؤرخين العراقيــين الذين كتبوا عن حيــاة المجتمع العراقــي، وأغفلوا تفاصيــل أولئك الناس الذين لهم تاريخ حافــل بالمنجزات وأسدوا من خلال عملهم خدمات كبيرة إلى المجتمع العراقي والعربي على امتداد تاريخ طويل..

فالأرمــن جزء حيوي في بنيــة المجتمع العراقي بــكل ألوانه وأطيافــه التي ينبغي دراستــه بمنتهى الموضوعيــة اعتماداً على مصادر موثوقة.

في الحقيقة، هنــاك شخصيات أرمنية مهمة جدّاً خدمت العراق تاريخاً وحاضراً.

وقــد ورد في تاريخ العــراق أسماء عدَّة ملــوك وحــكام حكموا العــراق، وكانوا من أصول أرمنية منذ القدم، وصولاً إلى العصور الوسطى، وخدم بعضهــم مع القادة العرب المسلمين، وكانوا مــن الأمراء الأرمن الذين عرفوا بمصداقيتهــم ونزاهتهم وكانت لهم صلاحياتهــم التفويضية في شــؤون العراق إبان العصــور العباسية، ويذكر أن السلطان بــدر الدين لؤلــؤ حاكم الموصــل في القرن الثالث عشــر الميلادي أنه أرمنــي الأصل. كمــا يعدّ يعقــوب أميرجان، وهــو بغدادي المولد، مــن الشخصيات الأرمنيــة البارزة وأســدى خدمات كبرى للعــراق عند قيادته

مجموعة من رجال البصرة للدفاع عن بغداد والمحافظة عليها عام ١٧٣٢م.

وترد أسماء شخصيــات أرمنية عراقية شغلت عــدّة مناصب ببغــداد إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومنهم: بيدروس كوركجي ويوسف كيفورك رئيس الصيارفة، وســتراك بوغوصيــان المفتش العــام للبنك العثمــاني. والتاجر الأرمنــي المعروف نعوم سركيس وغيرهم.

ومن الشخصيات الأرمنية العامة أيضاً (أوســكان أفندي) فوسكان مارديكيان الذي كان وزيراً للبريد والبرق في الدولة العثمانية، وبناء على دعوة وجهت له من قبل الحكومة العراقية في عشرينيات القرن الماضي، أصبح خبيراً مالياً في وزارة المالية العراقية، وطوّر النظام المالي في العراق وترجم عدّة نصوص قانونية من العثمانية إلى العربية.

وبرز أيضــاً، اسم ســيروب اسكندريان مديراً للإدارة النهرية في بغداد عام ١٩١٠م، وأيضاً هناك سرابيــون سيفيان الذي شغل المنصب نفسه قبل الحــرب العالمية الأولى، ثم شغل منصب سكرتــير وزير المالية عقب تأسيس النظام في المملكة العراقية.

أما في مجــال الكتابــة الصحافية فقد برز اســم جيراير غاريبيان الذي ألف عدداً مــن الكتب المهمــة، وأجــرى العشرات من المقابلات مع الشخصيات الأرمنية المعروفة على الصعيديــن السياسي والأدبي. وهناك الكاتــب آرا خاجــادور وشكــري كرابيــت بيروسيان عضو نقابه الصحفيين وغيرهم.

فإلى جانب الشخصيات الأرمنية البارزة في مجال الفن والتصوير والمسرح والتشكيل نتنــاول هنــا مجــال الأدب والكتابة. ففي مجال الأدب برز في العراق الكاتب والباحث يعقوب سركيس والكاتب يوسف عبد المسيح ثروت، والكاتب ليفون كارمين، وعبد المسيح وزيــر الذي جاء إلى العراق مع الملك فيصل الأول وكان مــن رجال الفكر والمعرفة. عين مترجمــاً في وزارة الدفــاع العراقية ووضع القاموس العسكري ومؤلفات أخرى. وترجم عــدّة كتب عسكرية لوزارة الدفاع العراقية. ويعــود إليــه الفضــل إلى ترجمــة الرتب العسكريــة إلى العربية -لأول مرة في الوطن العربي- وكذلك ترجمة الصنوف والأسلحة التي كانت مسمياتها باللغة التركية.

ومن جهة أخرى، بــرز الكاتب والباحث الأرمنــي يعقوب سركيس في مجــال الأدب وكان ضليعا بتاريخ العراق الحديث.

يعقــوب سركيس هو كاتــب عراقي من فضلاء بغداد، وأعيــان أدبائها، ومؤرخيها وكتابهــا، له باع طويــل في التأليف والبحث

والتنقيب في مختلف الفنون الأدبية، وفي المجتمع العراقي وتأريخه.

اشتهر مجلس يعقوب سركيس بحضور العلماء والأدباء والمؤرخين، وكان يقيم مجلسه في منطقة المربعة على نهر دجلة، حيث يجد عنده الطالبون ضالتهم المنشودة في العلم والأدب والبحوث المختلفة، وكان له مكتبة حافلة بمراجع العلم والأدب وأمهات الكتب والمؤلفات في اللغة العربية وتوفي في منتصف القرن الماضي.

من مؤلفاته: كتاب المباحث العراقية، ويقع في مجلدين، ويعتبر من الأبحاث الهامة في الهوية العراقية والمجتمع العراقي وتاريخه. صدر في بغداد عام ١٩٤٨م، حتى يقال بأنه المؤلف الحقيقي لكتاب ستيفن هيمسلي لونكريك المشهور بكتاب «أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث». كتب ونشر عدداً من المقالات في الصحف والمجلات العراقية.

اشتهر يعقوب سركيس في البلدانيات وفي تحقيق بعض المخطوطات الأدبية العربية. وقد تمَّ جمع كتاباته في مجال المخطوطات في كتاب بعنوان (فهرست مخطوطات خزانة يعقوب سركيس) في جامعة الحكمة في بغداد الصادر عام ١٩٦٦م.

كما اهتم الكاتب الاجتماعي يعقوب سركيس برصد تسمية العشائر في العراق وتفاصيل عن حياتها الاجتماعية. وكتب أيضاً بحوثاً تتناول تاريخ أسرة السعدون وعشائر المنتفق.

وتصنف كتاباته من أهم المراجع حول تاريخ السعدون والمنتفق. على اعتبار أنه هو الكاتب المتصل اتصالاً وثيقاً بآل سعدون من واقع علاقات أبيه (ويدعى الخواجة نعوم) الذي كان أميناً لخزينة (ناصر باشا السعدون)، وعلاقاته هو شخصيّاً بكثير من وجهاء آل سعدون.

ومما يزيد من أهمية كتابات سركيس احتفاظه بكثير من الوثائق، والمخطوطات، والمذكرات الخاصة بالمَشيخة، واهتمامه بالروايات الشفهية التي كان يرجع إليها كثيراً في كتاباته، وقد ضمن أغلبها فيما بعد في أجزاء كتابه القيم «مباحث عراقية» كما أسلفنا حيث دون الكثير عن المدن العراقية وتفاصيل تخص تسمية تلك المدن وتفاصيل عن جغرافيتها وتاريخها..

يذكر أن يعقوب سركيس كتب العديد من المقالات ومنها مقاله (نظرة في كتاب النقود وعلم النميات)، صدرت في مجلة المجمع العلمي العراقي عام ١٩٥٠م.

كما يتوضح لنا، أن الأرمن في العراق أيضاً يشكلون نموذجاً آخر للعلاقات

الأرمنية العربية التي أثمرت في ميادين الأدب والكتابة، على يد تلك الشخصيات العربية من أصول أرمنية.

فالعديد من الشخصيات الأرمنية كان لها حضور ملفت في الساحة العراقية وقد قدّموا خدماتهم الثقافية في الحياة العراقية إبان القرن العشرين في مجال الاقتصاد والسياسة والطب والتجارة والصيرفة.

وأستكمل هذا البحث بشخصية عربية من أصول أرمنية من دمشق. اعتبر اللحظة الفارقة في الفكر التنويري العربي في القرن التاسع عشر. وهو الأديب والصحفي البارز أديب إسحق أحد روّاد النهضة القومية.

توفي أديب إسحق عام ١٨٨٥م وفي مصادر أخرى عام ١٨٨٤م قبل أن يكمل التاسعة والعشرين من عمره، رغم ذلك تميزت إسهاماته في النهضة العربية الحديثة، بالأصالة والجدية والجرأة في الدفاع عن قضايا العرب. فقد أفلح في تناول عددٍ من الموضوعات المحورية في الحياة الاجتماعية والسياسية بروحٍ تأملية نقدية ثورية، لا تزال تحظى باهتمامٍ واسعٍ في الفكر العربي المعاصر حتى يومناً هذا، فمن أبرز الموضوعات التي تناولها: الوطن والمواطنة والحرية، والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والمساواة وسيادة القانون، والدعوة للحداثة والنهوض والمقاومة، لذلك سمي بالمفكر النهضوي المحترف.

وبرأي الباحث زهير توفيق فإن أديب إسحق هو مثقف نهضوي مختلف، حيث يقول عنه: «عبّر إسحق في كتاباته عن الواقع الذي يعيشه المشرق العربي، مستخدماً مفاهيم عصر التنوير والثورة الفرنسية في مقولاته كالحرية والمساواة والوطن والأمة، ونادى بالإصلاح الشامل ناقداً الاستبداد واعتبره آفة الشرق الأساسية. وأكد على ضرورة الحرية مستلهماً الحرية الليبرالية في القرن الثامن عشر».

تناول الباحث زهير توفيق الإشكالية الفكرية التي حركت إسحق وغيره، والتي شكلت الإطار التكويني للفكر العربي الحديث والمعاصر وهي إشكالية النهضة والإصلاح. ويرى توفيق أن أفضل مقاربة لفكر إسحق هي التي تعتمد المنهج التكاملي الذي يوظف عدة منهجيات للوصول إلى النص... لقد ركز إسحق على الإصلاح الشامل وكان للشيخ جمال الدين الأفغاني تأثيراً واضحاً عليه اجتماعيّاً وفكريّاً وسياسيّاً، إلى جانب التأثيرات الأخرى.

عاش إسحق عصراً اتسم بالتحولات السياسية والاجتماعية العميقة فرصد تلك التحولات بالتقدم والنهضة. وتأثرت

حياة إسحــق السياسية والفكرية بالأحداث السياسية والاجتماعية في الدولة العثمانية ومحاولات الإصــلاح فيها وانعكاساتها على البلاد العربية.

ومــن المصــادر العربية التــي نهل منها إسحاق: ابن خلدون وخــير الدين التونسي وجمال الدين الأفغاني.

ويعدُ أديب إسحق نفسه شرقيّاً إلى جانب كونه مصريّاً وسوريّــاً، ويهتم بالشرق ويحثه علــى النهوض. وقد ثمّــن الباحثون العرب في الفكر العربي الحديث دعوة إسحاق إلى تحرير المــرأة، واعتبروه في طليعــة أنصار المرأة الذيــن نادوا بمساواتهــا مع الرجل. وسمي هذا الكاتــب الأرمني الأصل، عربي اللسان باعث النهضة القومية.

أما عن نشأته، فقد ولد أديب إسحق عام ١٨٥٦م في دمشق من أسرة أرمنية. وتوفي في قرية الحــدث قرب بيروت. تعلم في مدرسة الآباء اللعازاريين حيث درس اللغتين العربية والفرنسية، ودرس لاحقاً اللغة التركية. بدأ نظــم الشعــر في الثانية عشــرة من عمره. اشتغل بالصحافة منــذ مطلع شبابه. غادر إلى بــيروت وتــولى تحرير جريــدة «ثمرات الفنون» ثم جريــدة «التقدم» ودخل جمعية «زهــرة الآداب» التــي كان يرأسها سليمان البستاني.

ثم انتقل إلى الإسكندرية حيث اشتغل في الترجمة والتأليف للمسرح مع سليم النقاش ومثّــل بعض المسرحيــات معه، ثــم قصد القاهــرة وهنــاك تعرف إلى جمــال الدين الأفغاني، فانضم إلى حلقاته، وأصدر جريدة «مصــر» عام ١٨٧٧م في مدينة القاهرة أولاً ثــم في الإسكندرية، وبعدهــا أصدر جريدة «التجارة».

وعندما هاجــر إلى باريس عام ١٨٨٠م أنشأ فيها جريــدة «مصر القاهرة». وهناك وســع ثقافته الغربية. وعمــل في الصحافة الفرنسية وترجم الروايات والمسرحيات عن اللغة الفرنسية إلى العربية. وقد عبّر الأديب الفرنسي الكبير فيكتور هيغو عن إعجابه به بقوله: «هذا نابغة الشرق». لاحقاً عيّن أديب في مصــر ناظــراً لقلم «الإنشــاء والترجمة بديوان المعارف». لكنه اضطر إلى العودة إلى بيروت فأقام في بيروت متولياً تحرير جريدة «التقدم» للمرة الثالثة.

كان أديــب إسحاق يؤمــن بحرية الفكر وسيــادة العقــل، وكان يدعــو إلى الحيــاة الدستورية ويطالب بالحريات الديمقراطية القائمــة على الشورى، ويدعــو إلى التقدم والإصــلاح بعيداً عن العنف وقــد تأثر في ذلك كلــه بجمال الدين الأفغــاني والثقافة الفرنسية.

وأما الصحافة العربية فقد كان له تأثير في تطويرها ودفعها إلى الأمام. ويقوم منهجه الصحفي على حسن الاختيار وتهذيب العبارة. أما مقالاته فأكثرها افتتاحيات مهمة أو مقالات مترجمة كان يتناول فيها الموضوعات العلمية أو الاجتماعية أو السياسية.

وكان أسلوبه أدبياً بليغاً يشبه نثر القرن الرابع الهجري في تفصيل الفقرات، والأخذ بالسجع، واستعمال المحسنات البديعية والصور البيانية.

وعلى الرغم من حذقه اللغتين العربية والفرنسية يقال أنه في ترجماته كان يعنى بنقل المعنى المجمل بالصيغة البليغة التي يتحرى فيها تناغم الفقرات، وموسيقى السجع، شأنه في ذلك شأن مترجمي عصره.

ترك أديب إسحاق مجموعة من الآثار، بعضها مطبوع وبعضها مخطوط، وقد جمعت آثاره مع ترجمة لحياته، وأقوال الصحف فيه في كتاب سمي «الدرر». ومن آثاره: «نزهة الأحداق في مصارع العشاق» وكتاب «آثار الأزهار» وقد شارك سليم الخوري في تحريره.. و«تراجم مصر في هذا العصر»، وله كتاب بعنوان «الأعمال السياسية والاجتماعية».

ترجم ثلاث مسرحيات عن الفرنسية: (أندروماك)، و(شارلمان)، و(غرائب الاتفاق) (مفقودة). ويذكر أنه ترجم مسرحية (أندروماك) للشاعر الفرنسي راسين بطلب من قنصل فرنسا في بيروت عام ١٨٧٥م وأضاف إليها شعراً نظمه وجعله ألحاناً، لتمثل على المسارح في بيروت. وبذلك يكون أديب إسحق قد شارك في الحركة المسرحية وساهم في التأليف والترجمة والتمثيل.

كما وله مقالات وخطب ورسائل، تضمنها كتاب (الدرر)، ولايزال قدر منها لم يجمع إلى الآن، وهي أعماله المبكرة، كذلك ترجم بعض الكتب المعجمية والأخلاقية.

وتجدر الإشارة إلى الجانب الصحفي لأديب، فمعظم مقالاته كانت تبحث في الحقوق والواجبات وتلازمهما، وفي الواجب والحق وفي الحقوق والواجبات الطبيعية والذاتية والنوعية وفي القضاء والاجراء وغيرها. ومواضيع في الزواج وتربية الصغار. ولعلّ من أهم الأبحاث التي كتبها في التقدم ما تحدث عن الصحافة والصحف وأهميتها.

وأما عن إنتاجه الشعري، فقد تجمع لديه قدر كبير من المقطوعات والقصائد، لكنها لم تنل عنايته ففقد الكثير منها، وقد ذكر أخوه عوني إسحاق، الذي جمع آثاره

النثرية والشعرية في كتـاب بعنوان (الدرر) أن لأديب عدة قصائد ومقطوعات في ديوان صديقه يوسف الشلفون (أنيس الجليس).

حسب عدد من الدارسين، لايرقى شعر أديب إسحـاق إلى مستوى نثره، فقد تجلت بلاغة شعـره في صنعته البلاغيـة، وتكلفّه البديعـي في الجناس والطبـاق والمقابلة والتورية. وقد أحسن اختيار الألفاظ الرنانة التـي يطرب لهـا السمـع، ويتقبلها الذوق السليـم، ولـه قصائد رائعـة جرت مجرى الأمثال، وسارت بين العامة كقوله في المرأة:

حسب المرأة قوم آفة
من يدانيها من الناس هلك
وراها غيرهم أمنية
ملك النعمة فيها من ملك
إنما المرأة مرآة بها
كل ما تنظره منك ولك
فهي شيطان إذا أفسدتها
وإذا أصلحتها فهي ملك

أما أسلوبـه، فيمكننا القـول إنه حذق العربيـة والفرنسيـة وتعمـق في دراستهما علـى مستـوى واحد. فكان يسلـك المسلك الخطابـي الحماسـي في كتاباتـه. فـكان السجـع قوام فن أديـب إسحق فقد اعتمد علـى تنميق التعبـير وكان يراعي الموسيقى في نـثره أكثر من شعـره. فهو بحق من روّاد النهضـة الحديثة في النـثر والترسل، فقد جمـع في كتابته بين جزالـة الترسل القديم وأناقته وعذوبـة الإنشاء الحديث وسهولته، كمـا أنه جعل مـن الخطابة فنـاً أميل إلى القديم بإيقاع قوافيـه، وإلى الجديد بتنوع مواضيعـه. كقوله: «وتململـت الأرضُ من أعمـالِ الإنسان، فزلزلـت زلزالَها، وكادت تُخرج أثقالَها، فارتعد الرعديد...»».

لقد قـال إسحق الشعـر في العديد من المواضيع مثل الغزل والمدح والرثاء والوصف والعتاب وغيرها.

كتـب أيضاً مـا كان يسمـى في القرن التاسـع عشر بالتأريـخ الشعري. فلم يترك لوناً مـن ألوان العروضـ أو باباً من أبواب النظـم إلا ولجه. فقد نظـم في المعارضات والتشطـير والتوشيـح ولـه بمعظم ضروب البديـع اللفظي من جناسـ وطباق وتورية وتضمين. ولـه إلى جانب البهلوانيات بعض المنظومـات في الألغاز والأحاجي. ويستعمل

في شعره بعض التعابير التي كانت مظهراً من مظاهر الحذق والبراعة في أيامه.

سمي بأديب الشرق الأدنى. حيث كان في طليعة خطباء عصره بلا منازع. فكانت الخطابة من أبرز الفنون التي اهتم بها أديب إسحق وأولاها عنايته بعد الصحافة. فتأتي الخطبة مشحونة بالثورة، أضف إلى ذلك اللسان الفصيح وتصريف الألفاظ وتكييف العبارات حتى كادت مقالاته كلها تغدو خطباً. لذلك وضعه البعض في طليعة رجال الصحافة والبعض الآخر في طليعة رجال الخطابة. وله قول مشهور:

قتل امرئٍ في غابة
جريمة لا تغتفر
وقتل شعبٍ آمن
مسألة فيها نظر

وفي النهاية تأتي كل تلك الإبداعات لتكون لبنة هامة في تشكيل وبناء العلاقات العربية الأرمنية في مجال الأدب والترجمة.

